حكايات من التاريخ

٨

استرني ستركَ اللّٰه

الدكتور
محمد عمر الحاجي

رسوم : إياد عيساوي

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

فَسُبْحَانَ مُغَيِّرِ الأَحْوَالِ

فـي سَنَـةِ اثْنَتَيْـنِ وسِتِّيْـنَ وثـلاثمئـةٍ للهِجْرَةِ حَدَثَتْ هَذِهِ القِصَّةُ:

رَوَى القَاضِي التَّنُّوخِيُّ عَنِ الفَضْلِ بْنِ الرَّبِيْع... قالَ:

لَمَّا اسْتَتَرْتُ مِنْ الخَلِيْفَةِ (المأمُوْنِ) أَخْفَيْتُ نَفْسِي حَتَّى عَنْ عِيَالِيْ، ووَلَدِيْ، وكُنْتُ أَنْتَقِلُ وَحْدِي.

فَلَمَّا اقْتَرَبَ (المأُمُوْنُ) مِنْ بَغْدَادَ؛ ازْدَاد

حَذَرِيْ ، وَخَوْفِي عَلَى نَفْسِيْ ، فَتَشَدَّدْتُ في الاحْتِيَاطِ ، والتَّوارِيْ ، وأفْضَيْتُ إلى مَنْزِلِ بَائِعِ أَقْمِشةٍ ، كُنْتُ أَعرِفُهُ في دَرْبِ بَاب الطَّاق ـ مكانٌ في بَغْداد ـ وشَدَّد (المأْمُونُ) في طَلَبيْ ، فَلَمْ يَعْرِفْ لِيْ خَبَراً.

فَتَذَكَّرَنيْ يوْماً ، فاغْتَاظَ على إسْحَاقَ بْنِ إبْراهيمَ ، وجدَّ في طَلَبي ، فأَغْلَظَ لَهُ ، فَخَرَجَ إسْحَاقُ مِنْ حَضْرَتِهِ ، وَجدَّ بِأصْحَابِ الشُّرَطِ ، وأَوْقَعَ بِبَعضِهِمْ المَكَارِهَ ، ونَادى في الجَانِبَيْنِ: مَنْ جَاءَ بِهِ فَلَهُ عَشْرَةُ آلافِ دِرْهَمٍ ، وإقْطَاعُ غَلَّتِهِ ثلاَثَةُ آلافِ دِيْنَارٍ في السَّنَةِ ، وإنْ وُجِدَ عِنْدَهُ بَعْدَ النِّدَاءِ ضُرِبَ خَمْسَمِئَةِ سَوْطٍ ، وهُدِّمَتْ دَارُهُ ، وأُخِذَ مَالُهُ ، وحُبِسَ طُوْلَ الدَّهْرِ! فَنُوْدِيَ بِذَلِكَ عَشِيّاً...

فَمَا شَعَرْتُ إلا وصَاحبَ الدَّار قَدْ دَخَلَ عَلَيَّ ، وأَخْبَرَني الخَبَر ، وقالَ: واللهِ! ما أَقْدِرُ بَعْدَ هذَا على سَتْرِكَ ، ولا آمَنُ مِنْ زَوْجتي ، وجَارِيتيْ ، وغُلامِيْ ، وأنْ تَشْرَهَ نُفُوْسُهُمْ إلى المَالِ ، فيَدُلُّون عَلَيْكَ ، وأَهْلَكَ بِهَلاكِكَ!

وإنْ صَفحَ الخَلِيْفَةُ عَنْكَ ، لَمْ آمَنْ مِنْ أَنْ تَتَّهِمَني بأَنِّي دَلَلْتُ عَلَيْكَ ، فَيَكُونُ ذَلِكَ أَقْبَحَ ، وأَشْنَعَ ، وَلَيْسَ الرَّأْيُ لِيْ وَلَك إلا أَنْ تَخْرُجَ عَنِّيْ!

فضَاقَتِ الأَرْضُ عَلَيَّ بِمَا وَسِعَتْ... وَقُلْتُ: إِذَا جَاء اللَّيْلُ خَرَجْتُ عَنْكَ!

قالَ: ومَنْ يُطِيْقُ الصَّبْرَ على هذا الضَّرَرِ إلى اللَّيْلِ ، فإِنَّكَ إِنْ وُجِدْتَ عِنْدِي قَبْلَ اللَّيْلِ؛ أَهْلَكْتَنِيْ ، وأَهْلَكْتَ نَفْسَكَ ، وهَذَا وقْتٌ حَارٌّ ،

وَقَدْ طَالَ عَهْدُ النَّاسِ بِكَ ، فَقُمْ وتَنَكَّرْ ، واخْرُجْ!

فَقُلْتُ: كَيْفَ أَتَنَكَّرُ؟!

فَقالَ: تأْخُذُ أكْثَر لِحْيَتِك ، وتُغَطِّيْ رَأْسَكَ وبَعْض وَجْهِكَ ، وتَلْبَسُ قَمِيْصاً ضَيِّقاً ، وتَخْرُجُ...

فَقُلْتُ: أَفْعَلُ.

فَجَاءَ بِمِقْرَاضٍ ـ مِقَصٍّ ـ فأَخَذْتُ أَكْثَرَ لِحْيَتي ، وتنَكَّرْتُ ، وخَرَجْتُ مِنْ عِنْدِهِ في أَوَّلِ أَوْقَاتِ العَصْرِ ، وأنا أكادُ أَنْ أَمُوتَ مِنَ الخَوْفِ!!

فَمَشَيْتُ في الشَّارِعِ ، حتى بَلَغْتُ الجِسْرَ ، فَوَجَدْتُهُ قَدْ رُشَّ ، وَهُوَ خَالٍ مِنَ الناسِ ، مُتَزَلِّقٌ.

فَلَمَّا تَوَسَّطْتُه ، إذا أنا بِفارِسٍ مِنَ الجُنْدِ الَّذِيْنَ كانُـوا في دَارِيْ ، في أيَّامِ وِزَارَتِي - أي: في أيَّامِ أَنْ كانَ الفَضْلُ وَزِيْراً لِهَارُونَ الرَّشِيْدِ - قَدْ قَرُبَ مِنِّي ، فَعَرَفَنِيْ ، وصَاحَ: طلبة أَمِيْرِ المُؤْمِنِيْنَ ، وَعَدَل إِلَيَّ لِيقْبِضَ عَلَيَّ.

فلِحَلاوَةِ النَّفْسِ دَفَعْتُهُ ودَابّتَهُ ، فَزَلَقَ ، وَوَقَعَ في بَعْضِ السُّفُنِ التي في الجِسْرِ ، وتَعادَى النَّاسُ لِخَلاصِهِ ، وظَنُّوا: أَنَّه زَلَقَ بِنَفْسِهِ.

وتَشَاغَلَ النَّاسُ عَنِّي بِهِ ، وزِدْتُ أَنَا في المَشْي ، ولَمْ أَعْدُ لِئلاَّ يُنْكِرَ حَالِيَ مَنْ يَرَانِيْ إلى أَنْ عَبَرْتُ الجِسْرَ ، ودَخَلْتَ دَرْبَ سُلَكان - مَكانٌ يعبرُ النَّاسُ مِنْهُ - فوَجَدْتُ امْرأَةً على بَابِ دَارٍ مَفْتُوْحٍ.

فَقُلْتُ لَهَا: يا امْرَأَةُ! أَنَا خَائِفٌ مِنَ القَتْلِ ، فأجِيْرِيْنِيْ ، واحْقُنِي دَمِيَ..!

فَقَالَتْ: ادْخُل ، وأوْمَأتْ إلى غُرْفَة ، فَصَعِدْتُها...

فَلَمَّا كانَ بَعْدَ سَاعَةٍ؛ إذْ بالبَابِ يُدَقُّ ، فَفَتَحَتْهُ ، وإذَا زَوْجُها قَدْ دخَلَ ، فتأَمَّلْتُهُ ، فإذَا هُوَ صاحِبي عَلى الجِسْرِ!!

وكان مَشْدُوْدَ الرَّأْسِ يتأوَّهُ مِنْ شَجَّةٍ لَحِقَتْهُ ، وَثِيَابُهُ مَغْمُوْسَةٌ بالدَّمِ.

وسأَلَتْهُ المَرْأةُ عَنْ خَبَرِهِ ، فأَخْبَرَها بالقِصَّة ، وقالَ لَها:

قدْ زَلَقَتْ دَابَّتِيْ... فوَقَعتُ ، ثُمَّ حكَى لَها مَا جَرَى لَهُ مَعِي ، وَجَعَل يَشْتُمُنِيْ ، وَهُوَ

لا يَعْلَم بِوُجُوْدِيْ مَعَهُ في الدَّارِ... وأَقْبَلَتِ المَرْأَةُ تتَرَفَّقُ بِهِ إلى أَنْ هَدَأ.

ولَمَّا صَلَّيْتُ المَغْرِبَ ، وأَقْبَلَ الظَّلامُ؛ صَعِدَتِ المَرْأةُ إِليَّ ، وقَالَتْ:

أَظُنُّك صَاحِبَ القِصَّةِ مَعَ هذَا الرَّجُلِ؟!

فَقُلْتُ: نَعَمْ!

فَقَالَتْ: قَدْ سَمِعْتَ مَا عِنْدَهُ ، فاتَّقِ اللهَ في نَفْسِكَ واخْرُجْ... فَدَعَوْتُ لَها... ، فَنَزَلَتْ ، فَفَتَحَتِ البَابَ فَتْحاً رَفِيْقاً ، وقَالَت: اخْرُجْ.

وكانَتِ الدَّرجَةُ في الدِّهْلِيْزِ ، فأَفْضَيْتُ إلى البَابِ ، فَلَمَّا انْتَهَيْتُ إلى آخِرِ الدَّرْبِ وَجَدْتُّ الحُرَّاسَ قَدْ أَغْلَقُوْه ، فَتَحيَّرْتُ!

ثُمَّ رأَيْتُ رَجُلاً يَفْتَحُ بِمِفْتَاحٍ رُوْمِيٍّ ، فَقُلْتُ: هَذَا رُوْمِيٌّ ، وَهُوَ مِمَّنْ يَقْبَلُ مِثْلِيْ.

فَدَنَوْتُ مِنْهُ ، وَقُلْتُ: أَسْتُرْنِيْ؛ سَتَرَكَ اللهُ!

فَقَالَ: ادْخُلْ ، فَدَخَلْتُ ، فرَأَيْتُهُ رَجُلاً فَقِيْرَاً وَحِيداً ، فأَقَمْتُ لَيْلَتِيْ عِنْدَهُ.

وَبَكَّرَ مِنْ غَدٍ ، وعادَ نصْفَ النَّهار ومَعَهُ حمَّالانِ يَحْملُ أَحَدُهُمَا حَصيراً ومخَدَّةً...

ويحمـلُ الآخـرُ خُبْـزاً ، وفَـاكِهَـةً ، ولَحْماً... ، فَدَخَل ، وتَرَك ذَلِكَ كُلَّه عِنْدي ، وأغْلَقَ البابَ.

فنزلْتُ ، ورُحْتُ أَلوْمُهُ ، وأَقُوْلُ: لِمَ كَلَّفْتَ نَفْسَكَ هذا؟!

فقالَ: أَنَا رَجُلٌ مُزَيِّنٌ ـ حَلاَّقٌ ـ وأخافُ أَنْ تستقْذِرَنِي ، وَقَدْ أَفْرَدْتُ لَكَ هذَا فاطبُخْ أَنْتَ وأطْعِمْنِي فَشَكَرْتُهُ ، وأقَمْتُ عِنْدُه ثَلاثَةَ أَيَّامٍ.

بَعْدَهَا خَرَجْتُ مُتَخَفِّياً إلى مَنزِلِ عَجُوْزٍ

بِبَابِ التِّبْنِ مِنْ مَوالِيْنَا ، فَلَمَّا رأتْنِي؛ بَكَتْ ، وحَمِدَتِ الله على رُؤْيَتِي ، وأدْخَلَتْني الدَّارَ.

فَلَمَّا كان السَّحَرُ ، وأنا نَائِمٌ ، بَكَّرَتِ العَجُوْزِ إلى الشُّرْطَةِ فأَخْبَرَتْهُمْ عَنْ قِصَّتِيْ.. فَمَا شَعَرْتُ إلا الرِّجَالُ والخَيْلُ قد أحَاطُوا بالدَّارِ ، ودخَلُوا فاسْتَخْرجُونِي ، حَتى أَوقفونـي بَيْـنَ يَـدَي (المـأْمُـونِ) حـافيـاً حَاسِراً...

فَلَمَّا رآنِي سجَد طَوِيلاً ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ ، وقالَ: يا فضْلُ: أَتدرِيْ لِمَ سَجَدْتُ؟!

قُلْتُ: نَعَمْ شُكْراً للهِ تعالى الَّذِي أظْفَرَكَ بِعَدوِّ دَوْلَتِكَ...!

قالَ: لا ، ولكنِّي سجدتُ شُكْراً لله على ما ألْهَمَنيه مِنَ العَفْوِ عَنْكَ ، فَحدِّثْنِيْ بِخَبَرِكَ!

فحَدَّثْتُهُ ، فأمَرَ بإحْضَارِ العَجُوْزِ ، وكانَتْ في الدَّارِ تَنْتَظِرُ الجَائِزَةَ ، فَقالَ: ما الَّذِيْ حَمَلَكِ على ما فَعَلْتِ؟ قَالَتْ: رغْبَةً في المَالِ!

فَقالَ: هَلْ لَكِ زَوْجٌ ، أَوْ وَلدٌ ، أو أخٌ؟

قالَتْ: لا! فأَمَرَ بِضَرْبِهَا مِئَةَ سَوْطٍ ، وتَخْلِيْدهَا في السِّجْنِ!

ولَمَّا عَلِمَ حَالَ المُزَيِّنِ ، أغْدَقَ عَلَيْهِ بالعَطَاءَاتِ والْهَدَايا.... ، وأَمَّا امْرَأَةُ الجُنْدِيِّ فأَمَر أن تُجْعَلَ في القَصْرِ... وتُشْرِفَ على تَرْبِيَةِ الأَوْلاَدِ ، وَذَلِكَ لأَنَّها عاقِلَةٌ أَدِيْبَةٌ.. وأَمَّا أَنا... فأطْلَقَ سَراحِي... وأَمَرَ لِيْ بالأَمْوَالِ والهَدَايَا...!!

فَرَجَعْتُ آخِرَ النَّهَارِ ، آمِناً ، مُطْمَئِنّاً...

مَعَ قَيْسِ بْنِ عَاصِمٍ

كَانَ (قَيْسُ بْنُ عَاصِمٍ) مَدْرَسَةً فِي الصَّفْحِ، والعَفْو، والحِلْمِ إلى دَرَجَةٍ: أنَّه رُوِيَ عَنْهُ حِكَاياتٌ عَجِيبَةٌ، لَكِنَّهَا مُفِيْدَةٌ، وهَادِفَةٌ، مِنْهَا: عَن الأحنَف بِنْ قَيْسٍ، قالَ:

كُنَّا نَخْتَلِفُ إلى (قَيْسِ بْنِ عاصِمٍ) نَتَعَلَّمُ مِنْهُ الحِلْمَ، كَمَا نَتَعَلَّمُ الفِقْهَ...

فبَيْنَما نَحْنُ ذاتَ يَوْمٍ عِنْدَهُ؛ وَهُوَ جَالِسٌ بِفِنائِهِ، مُلْتَحِفٌ بِكِسَائِهِ...

إِذَا جَمَاعَةٌ قَدْ أَقْبَلَتْ، وَفِيْهِمْ مَقْتُوْلٌ، ومَكْتُوْفٌ!

فَقَالُوا: يا أَبا عَلِيٍّ! هَذَا ابْنُكَ، قَتَلَهُ ابْنُ أَخِيْكَ!

قال: فَمَا تَحَـرَّكَ مِنْ مكَانِـهِ ، ولا تَكَلَّـم حَتَّى قَضَىٰ تَسْبِيْحَهُ... ثُمَّ أَقْبَلَ على ابْنِ أَخِيْـهِ ، فقَـال: قَتَلْـتَ ابْـنَ عَمِّـكَ! وقَلَّلْـتَ عَدَدَكَ!... لا يُبعدَ اللهُ غَيْرَك!

ثُمَّ أَقْبلَ على ابْنٍ لَهُ آخَرُ ، فَقَالَ: قُمْ يا بُنَيَّ... فاحْلُلْ كِتَافَ ابْنِ عَمِّكَ ، وسُقْ إلى أُمِّ أَخِيْكَ مِئةً من الإبل دِيَةَ ابْنِهَا ، فإِنَّهَا كما تَعلَمُ غَرِيْبَةٌ فِيْنَا!!

تَقَلُّبُ الأَيَّام!!

بَيْنَمَا كان الرَّجُلُ يَأْكُلُ ، وبَيْنَ يَدَيْهِ دَجَاجَةٌ مَشْوِيَّةٌ جَاءَهُ سَائِلٌ فَرَدَّهُ خَائِباً ، وكانَ الرَّجُلُ مُتْرَفاً ، فَوقَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ فُرْقَةٌ ، وذَهَبَ مَالُه ، وتَزَوَّجَتِ امْرأَتُهُ...

فَبَيْنَما الزَّوْجُ الثَّانِيْ يأْكُلُ وبَيْنَ يَدَيْهِ

دَجَاجَةٌ مَشْوِيَّةٌ ، جاءَهُ سَائِلٌ ، فَقَالَ لامْرَأتِهِ: ناوِلِيْهِ الدَّجَاجَة ، فناوَلَتْهُ ، ونَظَرتْ إلَيْهِ فإذا هُوَ زَوْجها الأوَّلُ ، فأَخْبَرَتْهُ بالقِصَّةِ ، فقالَ الزَّوْجُ الثَّانِيْ: وأنا ـ وَاللهِ! ذَلِكَ المِسْكِيْنُ الأوَّلُ ، الَّذِيْ خَيَّبني فحوَّلَ اللهُ نِعْمَتَهُ ، وأهْلَهُ إليَّ ، لِقلَّةِ شُكْرِهِ!!

رِقَّةٌ... واسْتِعْطَافٌ

لَمَّا قَتَلَ (المَنْصُورُ) مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللهِ؛ اعترَضَتْهُ امْرأَةٌ مَعَهَا صَبيَّانِ...

فأوْقَفَتْهُ وقَالَتْ لَهُ: يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنِينَ! أَنا امْرَأَةُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الله ، وهَذَانِ ابْنَاهُ أيتَمَهُمَا ـ أي: جَعَلَهُمَا يَتِيْمَيْنِ ـ سَيْفُكَ ، وأذَلَّهُمَا خَوْفُكَ... فناشَدْتُكَ اللهَ ألاَّ تُصَعِّرَ لَهُمَا خَدَّكَ ـ أيْ: لا تُعْرِض تكَبُّراً... وأَنْ

لا ينأَى عَنْهما رِفْدُكَ ـ أيْ: لا يَبْتعِدْ عَنْهما عَطَاؤُكَ ـ وأَنْ تُوْصِلَ مَعَهُمَا أَوَاصِرَ الرَّحِم.!

فالْتَفَتَ المَنْصُوْرُ إلى وَزِيْرِهِ ، ثُمَّ قَالَ: ارْدُدْ عَلَيْهِما ضِيَاعَ أَبِيْهِمَا... وَوَاللهِ! هَكَذَا أُحِبُّ أَنْ تَكُونَ نِساءُ بَنِيْ هَاشِمٍ...!

والحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ

* * *